حكايات بطولية للأطفال (٢٥)
من قصص الصمود

زَيتونةُ ستِّي حَفيظَة

بقلم: روضة الفرخ الهدهد

حكايات بطولية للأطفال (٢٥)

من قصص الصمود

زَيتونةُ ستِّي حَفيظَة

بقلم

روضة الفرخ الهدهد

الكاتبة الحائزة على جائزة الدولة التقديرية في أدب الطفل

رسوم الفنان : عبد الرؤوف شمعون

دقق النص : واصف بروان المشايخ

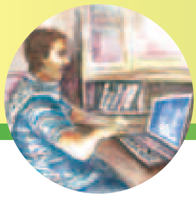

بسم الله الرحمن الرحيم

جَلسَتْ حَفيظةُ تحتَ ظلالِ شجرةِ الزّيتونِ ، وفَرشَت صُرَّةَ طعامِهَا ، ونَادَتْ أبنَاءَها للأكلِ ، وأقبَلَ عليهَا الأبناءُ لتناولِ وجبةِ الإفطارِ الشّهيةِ مَعَها ، لمْ يَكنْ على البِساطِ البلاستيكيِّ المفروشِ على الأرضِ إلاَّ مَناقيشَ الزعترِ وبعضاً من الجبنةِ وكثيراً مِن الشّاي ؛ ولكنَّ فرحةَ الجميعِ فاضتْ عِندما حَضرتْ الابنةُ فاطمةُ تَحملُ البندورةَ المقليّةَ والبيضَ المسلوقَ.

في شهرِ تشرين الثاني "نوفمبر" ، وبَعد نُزول أولِ الأمطارِمنْ كلِّ سنةٍ تَجتَمِعُ العائلةُ يومياً لتلَقيطِ شجرِ الزّيتونِ .. يَضعَونَ مفارشَ البلاستيك الكَبيرةَ على الأرضِ، تحتَ الشجرةِ ، وتبدأُ النَساءُ والرِجالُ والأولادُ في تلقيطِ حباتِ الزيتونِ الأخضرِ والأسودِ عن الشجرِ بهمةٍ ونشاط .

قالتْ حفيظةُ في نفسِها : ما أسعدَني في هذهِ الأيامِ .. أرى أولادِي وأحفادِي مِن حَولي، فينشرِحُ صدري وتَعلُو همَّتي .. هذا اسماعيلُ قد تزوّجَ ، وتلكَ فاطمةُ أنجبتْ ثلاثةَ أبناءٍ، وذلكَ عِيسَى سَبَقَ أخاهُ الكبيرَ فتزوجَ ولهُ اليوم خمسةُ أولادٍ .. وما زالَ محمد يعيشُ معي يَرعاني ويَرفُضُ تَركِي..

وجالتْ عَيناها بَيْنَ أولادِها وأحفادِها حَولها تُبارِك لهُم وتَقرأُ سورة الفلَق لحمايَتِهم ، ولكنهَا توقَّفَت وكأنَّ مسّاً أصابَهَا .. فصَرخَتْ قائلةً :

- أينَ مُحمّد .. أين أخوكم محمدٌ لماذا لمْ تُنادُوا عَليهِ ليُفطِرَ معنا؟

وصَرختْ حفيظةُ مرَّةً ثانيةً على ابنِها عِيسى:

- قُمْ يا ابنيْ عِيسى .. ابحثْ عن أخيكَ محمّدٍ ، لعلّهُ على إحْدى الشَّجَراتِ البعيدةِ.. أنتَ تَعرِفُ أنَّهُ يُحبُّ الابتِعادَ عنّا خِلالَ التلقيطِ .. لعلّهُ يَتحدَّثُ بالهاتِفِ ولا يَعرِفُ أننا تجمَّعنا للإفطارِ .. قُمْ بسرعةٍ .. قُمْ .

ولمْ يتأخَّر عيسى ثوانٍ عن الالتزامِ بمطالبِ والدتِهِ، فقدْ كانَ فعلاً قدْ قامَ مِن مَكانِهِ وانطلقَ للبحث عن أخيهِ .

أيُّ غيابٍ للولدِ عن عَينيّ أمِّهِ في هذهِ السِّنين هُوَ مُشكلةٌ ، فكيفَ تكونُ المشكلةُ عند حفيظة؟

صَمتتْ حَفيظةُ وتركتْ قِطعَةَ الخبزِ من يَدِها ، ووَضَعتْ يَدها على خَدِّها وقالت في نفسِها ..

- بلْ ما أتعَسَني من امرأةٍ قَضيْتُ سنين عُمْري أتعذَّبُ بأمور هذِهِ العائلةِ صَغيرِها وكبيرِهَا ، ولمَّا تُوفِّيَ زَوجيَ تَحمّلتُ العِبْءَ على كاهِليْ وَحْدي ...

نَظرتْ إلى إبنها اسماعيل فرأتْهُ جالساً ساهماً ، فقالتْ في نفسِها :

- هذا اسماعيلُ ابني البِكر ، وضَعتُهُ تحتَ شجرةِ زيتونٍ كبيرةٍ عندما غادَرنا يافا في النكبَةِ .. النكبةِ الأولى .. وهاجرنا إلى هنا ، إلى قريةٍ سالم البسيطة الصغيرة، كنّا قدْ تزوَّجْنا أنا وأبوهُ قبلَ أشهرٍ مِن سنة 1948 ، في بيتْ دجَن : القريةُ الحلوةُ القريبةُ من يافا .. وأهلي عَمِلوا لي أحلى زفَّةِ عروسٍ تَخرُجُ منْ بَيْتِ دجنٍ ، وتذهبُ إلى يافا حيثُ بَيتُ عريسَها ..

كانت أمي بالرغمِ من حُزنِها لسَفري إلى يَافا ؛ سعيدةً لأنني سأتزوجُ وأعيشُ فيها ، فمَن لا يَتمنّى السفرَ إلى يافَا وزيارَة محلاتِها التجاريّةِ الفخمةِ ؟!أو المشيِ في شوارِعِها الواسعةِ ، أو الوُقوفِ على شواطِئِها ومُراقبَةِ السُّفنِ والأمواجِ فيها ؟!

وقدْ كانت بحجَّةِ تحضير جهازي تُسافر كلَّ يومين أو ثلاثة إلى يافا لشراءِ حذاءٍ أو قميصِ نومٍ أو فستانٍ لي ..

وابتسمتْ حفيظةُ في نفسِها ، تتذكَّرُ والدَها إذا حَضرَ إلى البَيت فلمْ يَجدْ الغَدَاءَ المُناسبَ، فيسألُ ، فتقولُ لهُ أمُّها أنها كانتْ في يافا تَشتري لي أغراضَ العُرسِ ، فيسكت مرغماً ولا يَجرؤُ على مُعارَضتِها ، فَهيَ أمِّي العَزيزَةَ على قَلبِهِ، وأنا ابنَتُهُ الغاليةُ والحَبيبَةُ .

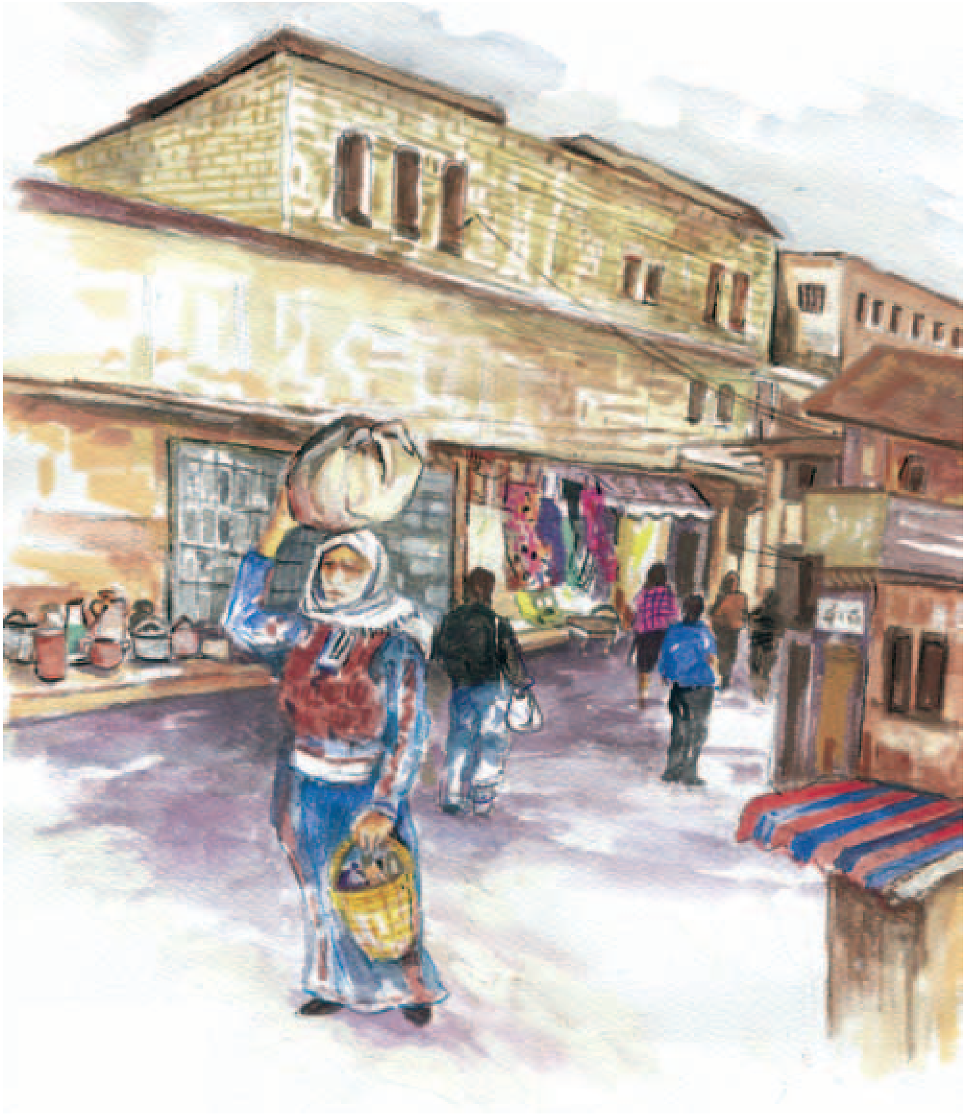

[أم حفيظة أثناء تسوقها في مدينة يافا .. لشراء أغراض العرس ومستلزماته..]

استغربَ اسماعيلُ تركيزَ نظر والدته عليه وهي لا تتكلمُ ، وكأنّها غائبةٌ عن الدُّنيا ولمْ يُقدِّر مَعنَى هذه النّظرةِ العَميقةِ الغائرةِ في الزمنِ البعيدِ .. زمن زفافِها هي ووالدُه، فأزاحَ نظرهُ عنها ، وأخذ ينظرُ إلى جِهَةٍ أخْرى ؛ فشاهدَ أخاهُ عِيسى عائداً فسألَهُ بصوتٍ عالٍ..

- ماذا يا عِيسَى ، أين محمد ؟ هل وَجَدتهُ هُناك ؟

- لا لمْ أجدْه.. لعلَّهُ في جِهة أخرى ، فقدْ ظَننتُ أنه عادَ في غيابِي، فمَررْتُ من هنا، سأعودُ للجهةِ الشماليةِ من المزرعةِ.

- ولو يا عيسى .. كل المزرعة أتجولُ فيها من أوّلها إلى آخرها بأقَلِّ من عشر دقائقَ.. فما الذي أخّركَ هكذا ؟! إجلسْ هُنا ، وأنا سأذهَبُ إلى هناك .

وانتبهت حفيظةُ وكأنّها عادت من رحلتِها ، ولمّا رأتْ عيسى أمامَها صَكّت وجْهَها قائلةً:

- ماذا يا عيسى ، ألمْ تَجِد أخاكَ محمداً ؟ إلى أين ذهبَ ، أينَ اختفَى .. هل لبِسَ طاقيّةَ الإخفاءِ .. أم ماذا ؟!!

وقاطعَها عِيسَى قَائِلاً :

- لا تخافِي يا أمّي ، لا يُوجَدُ أحدٌ قُربَ المزرعَةِ ، أنا عَارف بماذَا تُفكِّرين ، لا يُوجَدْ دباباتٌ ولا سياراتٌ اسرائيلية، أنا أؤكدُ لكِ أنهُ في أعلى شجرةٍ يتحدَّث مع أصحابِهِ بالهاتفِ .. سترين .. أقعدي يمّا أقعدي..

[حفيظة مع ابنها تطلبُ منه البحث عن أخيه محمد]

ذكريات

قعدت الأمّ.. وصَمتتْ صمتَ القبُور .. فهي لا تزالُ في داخِلِها تتَذكّر أمّها وأبَاها وحَفلَ زَفَافها .. حِينَها غابَ أخوها عن البيتِ أيّاماً وليالٍ ، وقلِقَتْ عليهِ العائلة كلّها، وتعطّلتْ حركة أمّها كثيراً ، لمْ تَعُد تُعِدّ الطعامَ لهُم ، ولمْ تعُد تُسافرإلى يافا لشراء جهاز عرسي .. وأعلَنَتْ أنها لنْ تُتمّ الزّواجَ إلا بعودةِ ابنِها الغائب ؛ وخافَ الجميعُ عليهِ . صحيحٌ أنَّهم أحسُّوا - ومِن دونِ أن يتفوّهَ أحدٌ بذلك - أنهُ سافرَ مع الثّوارِ لشراءِ السّلاحِ من سوريَا، إلا أنّهم لمْ يستطيعوا البوحَ بذلك أو التصريح بهِ، فمنْ سَيعرِّضُ نفسَهُ لخطرِالجيشِ الانجليزيِّ إذا سَمِعَ أنّ ابنهم مع الثوّار ، وأنّهُ سافرَ لشراءِأسلحةٍ لهم ؟...

كلّ فلسطينِ كانت تغلي في تلكَ الأيّامِ ، المُدنَ والقرى ، الجبالَ والأودية ، فالخطرُ يَقترِبُ يوماً بعدَ يوم .. وبيوتُ أهلها في بيت دَجَن ليْست أكثرُ أمناً من بيوتِ يافَا .. فيافا على البحرِ ، وفيها الميناءُ ، والسفنُ الكبيرةُ تقفُ في الميناءِ لإنزالِ البضائعِ للتجارِ ، ولكنَّ البضائعِ تكونُ في بعضِ الأحيانِ "مُهاجرين" يَهود ، وتكونُ في أحيانٍ أخرى سِلاحاً لليهودِ .. والسلاح كما يقولُ الجميعُ يكون كثيراً جداً ، ومن أفضلِ الأنواعِ، فيحمِلُه هؤلاءِ المهاجرونَ اليهودَ ، ويُهاجمُون به العَربُ أينمَا كانُوا ، والعربُ لا سلاحَ لديهِم ، فكيفَ سَيُدافعونَ عن محلّاتِهِم وبيوتِهم وأولادِهم ؟

ومع أنّ أباها كان قلقاً على ابنه ، كأيّ أبٍ يَغيبُ ابنُه دون أنْ يُودّعهُ وأنْ يُخبِرَهُ بجهةِ سَفرِهِ ، إلاّ أنّهُ كانَ يَتمنّي في داخِلِهِ أن يَكونَ فعلاً قد سافرَ لشراءِ الأسلحَةِ للثوارِ والمُدافعين عن المدنِ والقُرى ، وكانَ يتمنّى أنْ يُحضِرَ لهُ بندقيّةً حتّى يُدافع بها عَن بَيتِهِ وزوجَتِهِ وابنتِه ..

وبعدَ أسابيعٍ مِن الغيابِ ، عادَ أخو حفيظةَ ولكنّهُ لمْ يَلبثْ في البَيتِ إلاَّ يوماً أو بعضَ يومٍ، طمأنَ والدتَهُ ووالدَهُ وقبّل جَبينَ أختِهِ ، واستسْمَحَ الجميعَ وعادَ كمَا قالَ لوالِدي على انفرادٍ ، إلى القُدسِ ، ليُدافِعَ مَعَ المناضِلِ "عبدِ القادرِ الحُسيْنيِّ" عَنها!!

يَومَها طلبَ مِن والدِي أنْ يُسرِعَ في تَزويجي ، قالَ لهُ :

- تعلَم يا أبي أنَّ الانجليزَ احتلّوا بِلادَنا، وسَمَحُوا لليهودِ أنْ يُهاجِروا إليها ، بلْ أعطَى وزيرُ خارجيَّةِ الانجليز ، واسمُه بلفور ، لليهودِ "وعداً" بأن يُقيمُوا دولةً لهمْ على أرضِ فلسطين ، فهَل نَسكتُ؟ .. لقدْ قَرَّرْتُ يا والدِي أن لا أسكتَ .. فهذا ظلمٌ كبيرٌ لنا نحنُ العربُ، أصحابُ الأرض ؛ فالإنجليز يُساعدون اليهود على بناءِ بُيوتٍ لهم على أراضينا، ويُعطونهم الأسلحةَ لضربِنَا ، وأنا قرّرتُ أن أنضمَّ للثوارِ، لأن الثوار يُعدّونَ العُدَّةَ للتصدّي لليهودِ المهاجرينَ المعتدينَ ، ويَردُّونوهم إلى بلادِهِم التي قَدِمُوا منها !!

ورضخَتْ أمّي لأمرِ والدي ، وزوجتْني دُونَ وجودِ أخي بعدمَا اطمأنّت إلى وجودِه في الحياةِ بعيداً عنّا .

[شقيق حفيظة مع القائد عبد القادر الحسيني ، يشاركُ في الدفاع عن فلسطين]

- ستّي .. ستّي .. جاءَ عمِّي محمّد .. ستّي جاءَ عمّي ..

وأفاقتْ "حفيظةُ" من أفكارِها وهيَ تَسمعُ صيحات الأطفال بمجيءِ عمّهم ، وقامت هي الأخرى بكلِّ صعوبةٍ تقبِّلهُ وكأنَّهُ غابَ عنها أعواماً .. قائلةً:

- خِفنا عليكَ يا محمد .. أينَ كنتْ ؟

- لا تخافي يا أمِّي ، إبْنُكِ أسدٌ .. لا تخافي عليهِ .. كنتُ أطمئنّ من صاحبي على مزرعتِهِم ، فقدْ سَمِعتُ أن مُستوطِنينَ يهوداً تحرسُهم دبابَةٌ دخلوا المزرَعَة وكسَّروا كثيراً من شجرِها.

انتفضتْ حفيظةٌ وهي تسمعُ ذلك ؛ مُستوطِنونَ يَهُود تحرسُهُم دبابةٌ ، تدخُلُ مَزرَعَة زيتونٍ ، وتكسِّرُ الأشجارَ!!؛ فهلْ وصلَ باليهودِ الأذى إلى حدِّ تكسيرِ شجرِ الزيتونِ؟!.

قامتْ بِسرعةٍ وأمرتْ الأولادَ أنْ يُنْهُوا الأكلَ بسرعةٍ، وأنْ يَشربُوا الشايَ بسرعةٍ ، حتى يعودوا إلى عَملِهِم وقطافِ الزيتونِ .

في تلكَ الليلةِ اطمأنَّتْ "حفيظةُ" على وضعِ أكياسَ الزيتونِ المُلقَّطِ ، وعدّتها واحداً واحداً وقالتْ في نفسِها :

- الحمدُ لله أصبحَ عندنَا عشرةَ أكياسِ زيتونٍ ، وأنا أعتقدُ أنَّ مَوسِمَ الزيتونِ هذا العامُ سيكونُ جيداً إن شاءَ الله .. والله إنَّ شجرةَ الزيتونِ فعلاً شجرةً مُباركةً.. حتّى جاءَ ذكرُها في القرآنِ الكريمِ ، والحمدُ للهِ أنَّ بَيتَنا سَيظلُّ عامِراً بالزيتِ والزَّيتونِ إلى الموسمِ القادمِ.

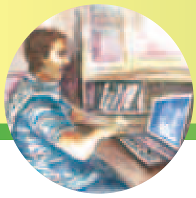

وأضافتْ :

- هذهِ الأكياسُ العشرةُ ، ومعْ باقي الزيتون الذي سَنقطفُهُ الأيامَ القادمةَ سَيكونُ المحصولُ كافياً، إنْ شاءَ الله ، كافياً لي ولأبنائي .. سأكبِسُ بعضاً من الزيتون مثلَ كلِّ عامٍ بالملحِ والليمونِ و الفلفلِ الأخضرِ، أختارُ الحبَّاتِ "الشلبيّة" والجيدةِ للكبيسِ، وأُرسِل الباقِي إلى المعصرةِ، إن شاءَ الله يكون الزيتُ وفيراً ، يُمكن عشرُ تنكاتٍ أو أكثر..

وخَجِلَتْ حفيظةُ من نفسِها ، كأنّها تُحددُ "الرزقَ" الذي سيكونُ عندَها وهيَ المرأةُ المسلمةُ المؤمنةُ التي تَعرفُ أنَّ الرِّزقَ من عند الله ، يُؤتِيه مَن يَشاءُ وكيف يَشاء ، فقرأتْ سورةَ الفلقِ مرّةً أخرى وأدارَت يدَها على كلّ الأكياسِ التي على الأرضِ.

وعادتْ إلى أولادها وأحفادِها، فقرَأتْ الآيةَ مَرَّةً أُخرى عليهِم؛ واتجهت بكُلّ هدوءٍ إلى رُكنِها في المَنزلِ ، حيثُ فرشتُها ووسادتُها ولحافُها ، فتغطَّت ونامَتْ حتى علا شخيرُها.

[حفيظة مع أكياس الزيتون مصدرُ رزقها ورزق أبنائها]

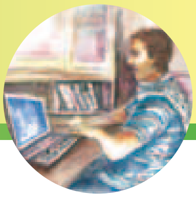

محمد

ولكنّ محمداً عندما اطمأنَّ إلى نومِ الجميعِ ، اقتربَ من فرشةِ والدتِهِ حَفيظَةَ ، ولبِثَ ثوانٍ قُربَها يَستَمِعُ إلى شَخيرِهَا يَعلو ويَهبِطُ .. فَعلِمَ مِن رتابتِهِ أنّها نائمَةٌ "بلْ وفي سابعِ نومةٍ". عندها تَسَحّبَ رُوَيداً رُويداً بكلِّ هدوءٍ ، وفتحَ البابَ بهدوءٍ أيضاً وانطلَقَ إلى الشّارِعِ العامِّ.. دقائِقَ ووَصلَ إلى بَيتِ الأستاذِ أحمدَ، وكانَ رفاقهُ مُتحلّقينَ حولهُ. قالَ الأستاذُ :

- تأخّرتَ يا مُحمَّد ، لعلَّ المانعَ خيرٌ ؟!

- هيَ أمّي يَا سيِّدي .. أصبحتْ تخافُ عليّ أكثرَ مِن اللازمِ .. بلْ أراها تَملكُ شَخصيَّتيْنِ مُتناقَضتين.

- كيفَ ؟

- أحياناً أسمَعُها تَحكِي قِصّةَ خالي وكيفَ التَحقَ معْ القائدِ المَشهورِ "عبد القادرِ الحسيني" للدفاعِ عن القُدسِ ، وتصورُهُ لنا بَطلَ الأبطالِ، وتفخَرُ بهِ كلَّ الفخرِ، لأنهُ فعلاً تصدى لقواتِ الإنجليزِ واليهودِ وأوقعَ بهمْ خسائرَ كبيرةً ، ولكنهَا أحياناً أخرى أراها لا تُريدُ أنْ أبتعدَ عن ناظرِيْها ، ولا حتّى أنْ أتحدَّثَ عن اعتداءاتِ اليهودِ على أراضينا ، وشَجرنا وناسنا .. تُريد أن أبتعدَ عن الشبابِ من جيرانِنا ، الذّين تُحسُّ أنهُم يَتدرَّبونَ على السِّلاحِ أو تَسمَعُ أنَّهم يُشارِكونَ في فتحِ الأنفاقِ .. أو يُخطِّطونَ لمقاومةِ اليهودِ المحتلّين من حولنا .

ردَّ الأستاذُ بهدوءٍ:

- كانَ اللهُ في عونِ الأمّهاتِ يا ولدي ، قُلوبُهنّ كلُّها حُبٌّ وحنانٌ على أولادِهِن ، غداً سترى أمّك مُفاجأةً كبيرةً تجعلها تَشكرُكَ عليْها.

واستغربَ محمد مِن كلامِ الأستاذِ ؛ وجعَلَ يُفكِّرُ مَليّاً بِحديثِه ، وهذهِ "المفاجأةِ" التي سَتُسعِدُ أمّهُ.. وهلْ فِعلاً ستسعدُ المُفاجأةُ والدتَهُ؟!

وانطلقَ محمّد إلى بَيتِهِ مُتأخِّراً ، ولمّا وصلَ كانَ بالبابِ أوراقٌ عليها نجمةٌ زرقاء ، يَحدُّها خَطّانِ أزرقانِ ، فَحَمَلها واتجَهَ إلى سَريرِهِ وهو يفكّر ..

[أوراق المحتل الاسرائيلي وأوامرهم التي لا تتوقف تحذر السكان العرب وتمنع حريّتهم]

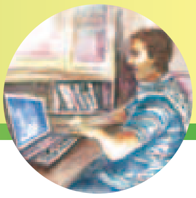

مناحيم جولدمان

في المستعمرةِ القريبَةِ مِنْ مَنزلِ حَفيظة في قريةِ سالم ، يعيشُ مناحيم جولدمان وزوجته وحوالي خمسمائة شخصٍ يهوديٍّ آخرَ.

أما مناحيم فقد جاءَ إلى فلسطين من مدينةِ نيويورك من أمريكا.. وأمَّا زوجتُهُ فجاءَتْ قَبلَهُ إلى فلسطين من بلدٍ اسمهُ إيرلندا ؛ وأما باقي سكان المستعمرةِ فقدْ أتوْا من جهاتٍ مختلفةٍ في أوروبّا ؛ فمنهم من جاءَ من روسيا أو ألمانيا أوفرنسا أو حتى من انجلترا..

كان ''مناحيم جولدمان'' عندما جاءَ إلى فلسطين، يظنُّ أنّ أرضَ فلسطين خاليةٌ من السكان ، وأنّه هو وجماعتهُ من اليهودِ سيبنون بيوتها ، ويزرعونَ شجرَها ، ويعيشون فيها بأمنٍ واطمئنانٍ .

ولكنّه عندما شاهدَ بُيوتَ الفلسطينيين ومَزارِعَهُم وأشجارَهُم ، حَقَدَ عَليهم وقرّرَ مُحاربَتَهم وطردَهُم من بيوتِهم وأرضِهم.

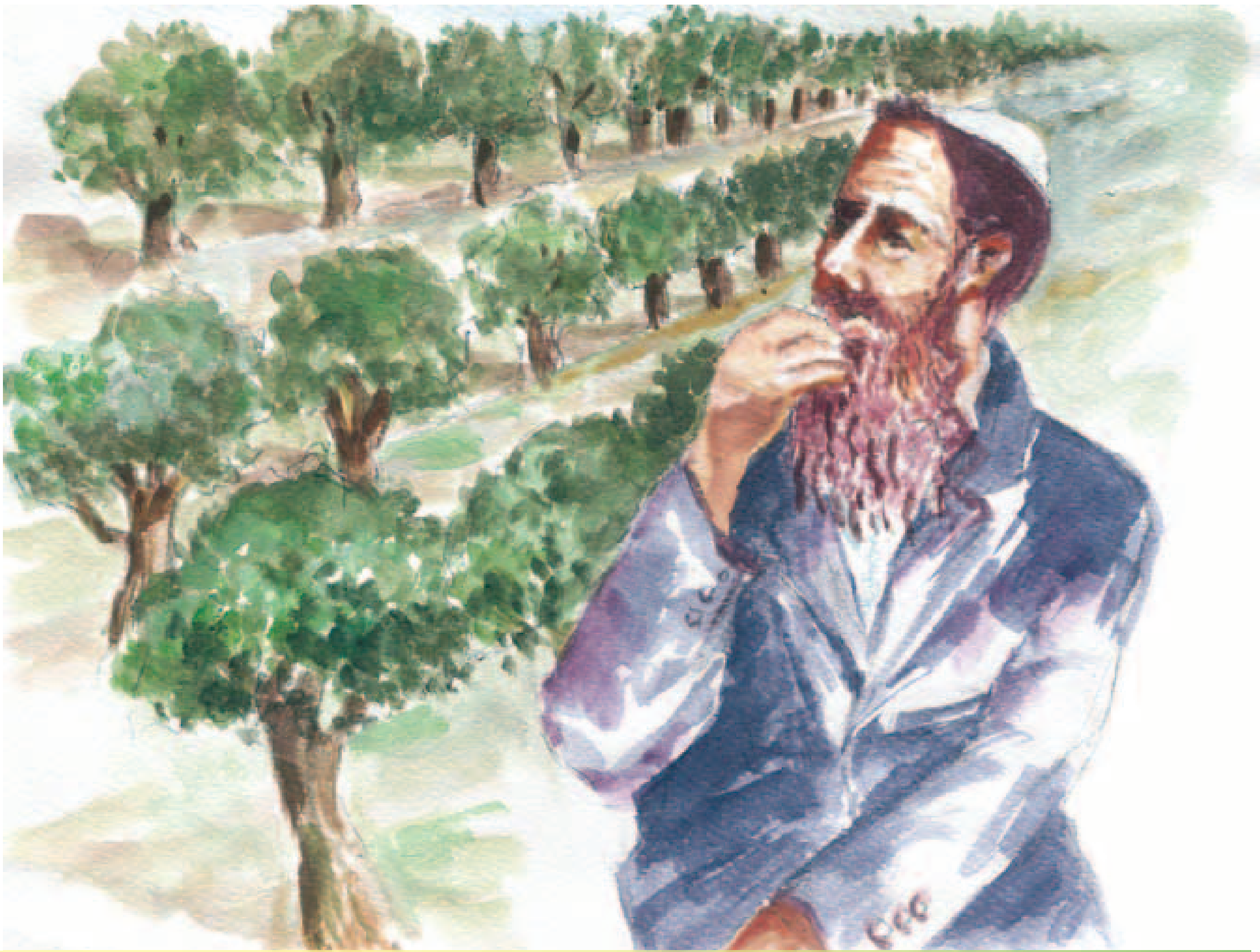

[نظرات الحقد والطمع تملأ قلوب المستوطنين تجاه البشر والحجر والشجر الفلسطيني]

نظرَ ”مناحيم جولدمان“ حولَهُ فرأى بيتَ حفيظة وأولادها، وتعجّب في نفسِهِ مِن عَددِ أشجارِ الزيتونِ في مزرعتِها ، وحُسنِ تَرتيبِها ؛: كلّ شجرةٍ تبعدُ عن أختِها حوالى ستة أمتار، ينظُرُ إليها من هذا الطّرف فيجدها صفاً واحداً ، ويَنظر إليها من الطرف الآخرِ فيجِدها صفاً واحداً أيضاً، حتّى لو نظرَإليها من الزاويةِ سيجدها أيضاً صفاً واحداً؛ وأكثرُ ما كان يثير إعجابهُ شجرةٌ كبيرةٌ في مدخلِ المزرعةِ كأنها أمُّ هذهِ الأشجارُ جميعُها.

فجذعُ هذه الشجرةِ عريضٌ جداً بحيثُ لوْ لَفَّ ذِراعَيْهِ حَولَها ما لَفّ ربْعَها.. وفُروعُها أكثرُ مِن أنْ تُعدّ أو تُحصَى.. كأنَّها غابَةٌ في شَجَرةٍ واحدةٍ ..

كانَ”مَناحِيمْ جُولدْمَان“ يُتابعُ حفيظةَ وأولادَها صبَاحَ مساءَ .. ويَراها وهيَ تَحلُبُ البقرةَ، أو تُطعِمُ الدجاجَ أو تَنشرُ الغسيلَ فَوقَ سَطحِ الدّارِ، وكانَ يَعرِفُ بالضبطِ أنّها في نهايةِ كلّ عامٍ وفي شهرِ عشرةَ تَقريباً تبدأُ بقطفِ ثمارِ زيتونِها .

وفي يومٍ من الأيّامِ جاءَ رجلُ دينٍ يهوديٍّ: ”حَاخام“ ، ليَسْكُنَ المستعمرة ، وتعجّب الحاخامُ اليهوديُّ مِن ”مناحيم جُولْدمان“ وسُكانِ المُستعمرةِ ، كيفَ يَعيشونَ وبقُربهم هذهِ المَزرعةِ العربيةِ، قالَ :

- ما هذا يا قوم ؟ أتسمحونَ لهذهِ العائلة بالنومِ الهانئِ في أرضِكُم؟!

قالتْ زوجَةُ مناحيم بعفويَّةٍ :

- جئْنا إلى هُنا وهِيَ تَسكُنُ هذهِ الدّار : هِيَ وأبناؤُها الصِّغار..

- ولكنَّها أرضنا نحن ..

- كيف؟!

- أعطانا الله إيّاها؛ أعطاها لذريَّةِ إبراهِيمَ واسحقَ ويَعقوبَ ، وليسَ لذريةِ اسماعيلَ أوْ غيرهم .. إنّها لنَا .

- ولكنَّها فيهَا مِنْ قَبْلِنَا.

- وإنْ يَكُن!! فلنَأخُذْها مِنها .

- كيف؟

- بالقوةِ والقهرِ ..

ومِنْ ذلكَ النّهار أحضرَ الحاخامُ جميعَ أنواعِ الأسلحةِ ، وأعطاهَا لسُكانِ المُستعمرَةِ .. وبَدَأَ التدريبُ على حَمْلِ السِّلاحِ واستِعمالِه.

تَدريبٌ يوميٌّ ، وإطلاقُ رصاصٍ حيٍّ مُتواصلٍ: وحَفيظة وأولادُها يَسمعُونَ الرَّصاصَ ويَخشونَهُ ويَعلمونَ أنّهم المَقصودُونَ مِنهُ !!

****

في المساءِ وَجَدَ محمد على بَابِ بيتِهِ أوراقاً مكتوباً فيها :

- أُخرجُوا مِن هَذِهِ الأرض وإلا فسيكونُ مصيرُكُم القتلَ !!

حمَلَ محمدٌ الأوراقَ ، ومزَّقَهَا قبلَ أنْ تراهَا والدَتُهُ أو أحدٌ من إخوتِهِ، واتصلَ بالأُستاذِ أحمدَ ..

[حفيظة المرأةُ الفلسطينيةُ تقومُ بعملها اليومي بهمّةٍ ونشاط]

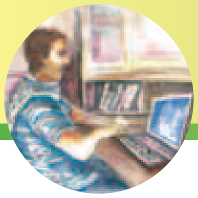

المفاجأة

في صباحِ اليوم التالي قامتْ حَفيظةُ بكلِّ همَّةٍ ونشاطٍ ، تُعدُّ الفطورَ والشاي لحملِها إلى المزرعَةِ لاستكمالِ تلقيطِ الزيتونِ .. كانَ أكبرُ مشاكلها الخوفَ من هُجومٍ مُباغتٍ "لمناحيم جولدمان" مع مجموعةٍ من سُكَّانِ المُستوطنةِ القريبةِ؛ ففي كلِّ موسمِ زيتونٍ، يَستَعِدُّ سُكانُ المُستوطنةِ القريبةُ للهجومِ على مزارعِ الفلسطينييْنَ لمنعهم من حصادِ زيتونهم ، فهم في هَذا العامِ قد ازدادوا قوّةً وغطرسةً ، فأصبحوا يحملونَ السلاحَ وزُجاجاتِ البنزين والمناشيرَ الكهربائيّة :

السلاحُ يطلقونه على أصحابِ المزروعاتِ الفلسطينيَّةِ، وزُجاجاتُ البنزين لحرقِ الشّجرِ، والمناشيرُ الكهربائيةُ لقطعِ الأغصانِ وجذوعِ الشجرِ ..

وخفَقَ قلبُ حفيظةَ وهي تتصوَّر "مناحيم جولدمان" ورفاقه وقدْ أقبلوا عليها وعلى أولادها.. ولكنّها استعاذت باللهِ من الشيطانِ الرّجيمِ وأبعدت عن عقلِها أيّ وساوسَ ، ونادتْ على اسماعيلَ وعيسَى ومُحمّد ..

فجأةً لمْ تجدْ محمداً أيضاً في فراشِهِ ..

- يا لهذا الابنِ المُشاكِسِ .. كُلّمَا أسألُ عنهُ لا أجِدُهُ .. واللهِ عذّبني .. وأتعبني ، وأتعبَ بالي ، فنادَتْ على عِيسى تَشكُو لهُ غيابَ محمدٍ .. ولكنّ عيسى قال :

- ها هوَ مُحمدٌ في المزرعةِ يا أمِّي .. لقدْ سَبَقَنا هناك ..

واستغربت الأمُّ أكثر .. فكيفَ وصلَ محمدٌ للمزرعةِ قبلَها ؟!!

لمّا وصَلَتْ حَفيظَةُ فُوجِئَتْ بمَا رَأتْ .. مَجموعةٌ كبيرةٌ من الشّبابِ في المزرعةِ قبلها .. خافتْ .. وارتعدت مفاصِلُها ؛ هل يَكونُ "مِناحِيم جولدمان" ورِفاقه : قُطْعَان المستوطنينَ قدْ وصَلوا قبلَها ، وكسَّرُوا الأشجارَ؟

ولكن الأشجارَ - كما ترَى - سَليمةٌ ، ومَلابسَ الشبابِ عَربيَّةٌ ، ولا يضعونَ الطّواقي الصغيرةَ على رؤوسِهِم .. مَنْ هُم إذنْ؟!!

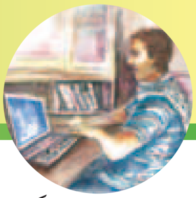

وارتفَعَ صوتُ مُحمدٍ مُهللاً ومُرحِّباً بأمِّهِ وإخوانهِ :

- تعالُوا انظرُوا .. لقدْ قاربْنَا على إنهاءِ تلقيطِ الزيتونِ .. لمْ تبقَ إلا شجرتُك الكبيرة يا أمّي هناك في مدخلِ الأرضِ تركناهَا لكِ يا أمّي ؛ فهيَ شجرتكِ الحبيبةُ كمَا تقولينَ! هيَّا هيَّا يا أمِّي ، إبدَئي العمل.

كانتْ مُفاجأةً فعلاً للأمّ ، لقدْ حَضَرَ مُحمدٌ ومجموعةٌ مِن أبناءِ مدرستهِ ومعلميهم ومديرهم الأستاذ أحمد ، لمعاونَةِ حفيظةَ وأولادِهَا .. وها هم قد أنهوا المُهمَّةَ فعلاً ..

كمْ كانَ فرحُ حفيظةَ عظيماً ، فهيَ قد أنهتْ حصادَ زيتونِ هذا العامِ ، و اطمأنَّت على سلامَةِ أبنائِهَا من هُجومٍ مُحتمَلٍ لقُطعَانِ المستوطنينَ : الحاخامُ ومناحيم جولدمان ورفاقهم..

فهل انتهتْ مشاكلها بانتهاءِ موسمِ القِطافِ هذا ؟! .

[حفيظة تقرأ سورة البقرة ، وتدعو الله أن يحميَ أبناءها وشجرها وزيتونها وأرضها]

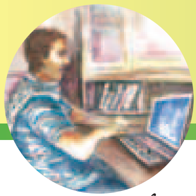

في تلك الليلةِ لمْ تنمْ حفيظةُ من الفرحِ .. عشرونَ كيساً مِن الزّيتونِ الأخضرِ والأسودِ في بيتِها .. أعادَتْ عدَّها أكثر من مرَّةٍ وقَرأتْ عليها أطول سُورة من سُوَرِ القرآنِ السابقةِ ؛ "سورة البقرة" ، ودَعَتْ اللهَ كَثيراً أنْ يَحمِيَ أولادَهَا ويَحميَ شجَرِهَا وزيتُونِها وأرضِهَا.

ولم تكدْ الشّمسُ تُضيءُ بأشعَّتِها الكونَ ، حتى كانتْ حفيظةُ تهيِّء نفسَها ليومِ عملٍ شاقٍّ؛ أعدَّت طَبيخَ ذلكَ اليوم ، ورتَّبتْ الفِراشَ، وانطلقتْ إلى اسماعِيلَ وعيسى تُوقِظُهُما كي يَبدَءا عملهُما باكراً..

فالزيتونُ يجبُ أنْ لا يبقى في الأكياسِ ، وإلاَّ تغيَّر طَعم زيتِهِ ..

وَصلت ابنتُها فاطِمةُ كيْ تساعدها في كبيسِ الزَّيتونِ وَوضعِهِ في المَرطباناتِ مع الليمونِ والملحِ والفُلفُلِ الأخضرِ .

نَظَرَتْ حَفيظةُ إلى ابنتِها فاطمةُ وقدْ جَلسَتْ على الأرضِ وأمَامَها أكوامَ الزيتونِ ، وبِيَدِهَا السّكينَ ، تُقطّعُ الليمونَ والفلفلَ ، وتذكَّرَتْ في خَيالِهَا مَرطبَانَاتِ الزَّيتونِ التي أنقَذَتْها مِن الجُوعِ في أيامِ الهجرةِ تِلْكَ..

كانتْ حينها تسيرُ ببطنها الكبير ، وحولها عشرات العائلاتِ المُهاجرةِ مثلها، دونَ أن يحملُوا أيَّ طعامٍ أو شرابٍ .. وأصواتُ الرّصاصِ تُلعلعُ من خَلفهم ؛ وتستحثُّهم على الإسراعِ في المسيرِ .. وأصواتُ الطائراتِ تَهدِرُ فوقَهُم تُرعبهم وتَجعلهم يُهرولونَ في مسيرِهِم؛ فلمَّا فاضَ بهمْ التَّعبُ والجوعُ ، وصلوا قريةً فلسطينيةً لا يعرفونها ولا يعرفونَ سكانَها.

يومَها أخرجَ لهم سُكّانُ القريةِ مرطبانَاتِ زيتونٍ وخبزٍ ليسدُّوا جوعهم بها، ما كان أزكى من ذلك الزيتونِ، ولا ذلكَ الخبزِ ؛ ولا كانَ أكرمَ من أهلِ هذهِ القريةِ وسُكّانها ..

ظلّ الزيتونُ والشايُ طعامَهُم المُفضّل والوَحيد لأيَّام وأسابيعَ ، بل وأشهراً عديدةً، حتّى أصبحَتْ لا تتوقّع يوماً أنْ تصحو دون أن يكون في بيتِها الزّيتون .

قالَتْ حَفيظةُ بصوتٍ عالٍ ، وقدْ أحسَّت أنَّ ابنتها تُراقبها ..

- حسناً يا ابنتِي ، سأذهَبُ لأرى الشّباب.

ذهبتْ حفيظة لإيقاظِ أبنائِها قائلةً :

- هيَّا يا أبنائي ؛ أهْلُنا علَّمُونا أنَّ الزَّيتونَ يجبُ أن يُنقَلَ من "الشجرِ إلى الحجرِ".. أليسَ كذلك ؟

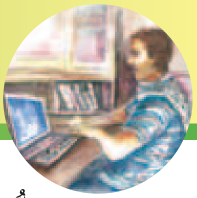

كانَ النُّعاسُ لا يزالُ يملأُ وجهَ الشابَّين ولكنَّهُما قالا :

- نعم يا أمِّي .. هو كذلك .

- هذا يعني يا أحبَابي أن نقطع ثمارَ الزيتونِ من الشجرِ ونأخذهُ حالاً إلى المعصرةِ.. يَعني ”حجرُ العصيرِ“ فالأهل قديماً كانوا يَعصرُونَ الزيتون بكبسِهِ بالحجرِ الكبيرِ، وليس كمعاصِرِ الزيتونِ اليومَ .. الحمدُ للهِ مَعاصِرُ الزيتون اليومَ رائعةٌ ، تُعطينا زيتاً أكثر وبسرعةٍ أكبر ..

وأردَفتْ بحماسٍ :

- قُومُوا الله يرضَى عليكُم ، حتّى تَأخُذُوا الدَّوْرَ فالمعاصِرُ اليومَ مَليئَةٌ بالمزارعينَ، يَحملونَ أكياسَ الزيتونِ لعصرِها .

دَقائقٌ وكانَ الشبابُ الثلاثةُ يَضعونَ الأكياسَ في السيارةِ ”البيكب“ التي أحضَرها مُحمد معْ أحدِ أصحابِهِ ، وانطَلَقُوا جَميعاً إلى المَعصرَةِ.

ولمْ تكدْ السّيارةُ تختفي عن الأنظارِ ، حتى كانَ البابُ يدقُّ دقّاً شديداً!!،

واتجَهتْ حفيظةُ للبابِ ، وإذْ بها وجهاً لِوجه مع ”مناحيم جولدمان“ ..

- ما الأمرُ ؟ قالتْ حَفيظةُ بحزمٍ .

- خذي هذا ..

ورمى مناحيم بورقةٍ في وجهِ أم اسماعيل ..

- ما هَذه؟

- اقرئِيهَا .. أو دَعي أولادُك اِلْمُجرمِينَ يَقرؤنها لكِ .

- وأخذتْ حفيظةُ الورقة وأغلَقَت البَابَ بِعُنفٍ فِي وَجْهِ مَناحيم .

وارتفعَ صوتُ مناحِيمْ مُهدداً :

- تغْلقِينَ البابَ في وجْهي يا عجوزَ النحسِ .. ستَرينَ أنتِ وأبناؤُكِ ماذا سَنفعلُ بكُم.. اليومَ جئتكِ بورَقَةٍ ، وغداً سآتيكِ برصَاصةٍ في قلبكِ.

لمْ يكُنْ مِن السَّهلِ على حَفيظَة فهمُ ما في الورقةِ مِن القِراءَةِ الأُولَى .. فأعادَتْ قِراءَتها مرَّاتٍ ومرّاتٍ ومرّاتٍ ويا لِهَول ما قرَأت !!

يوم وليلة ...

[معصر ة زيتون حديثة لعصر الزيت من حبات الزيتون]

غابَ الأبناءُ عن الدارِ يوماً وليلةً ، ظلُّوا وقوفاً في المعصرةِ معْ أكياسِ الزيتونِ ينتظرونَ دورَهُم في العَصرِ ..

كانَ مبنى المعصرةِ كبيراً، ولهُ بابان كبيرانِ منْ الجِهتيْنِ المُقابِلتَيْنِ ، في الجهةِ الأولى تَصطَفُّ مئاتُ الأكياسِ المملوءَةِ بالزّيتونِ ، ويقفُ قُربَ كلّ مجموعَةٍ صاحِبُها ، ينتظرُ دورَهُ في العصرِ، وفي الجهَةِ الثانيَةِ يقفُ حاملو تَنكاتِ الزيتِ المعصورِ.

وقفَ اسماعيلُ وعيسى قربَ أكياسِ الزيتونِ ، وعندما حان دورهم، بَدأوا بِتفريغ الأكياسِ واحداً بعدَ الآخرَ في الحوضِ الأرضيِّ المُعدِّ لذلكَ. عندهَا بَدأَ شريطٌ معدني طويل يصعد بالزيتون إلى أعلى ، إلى حيث يبدأ فرز حبات الزيتون عن ورقِ الشجرِ وأيّ شوائبٍ أخرى .. ثمَّ يتمُّ غسلهُ بالماءِ ثمَّ يُحفظُ في وعاءٍ كبيرٍ مُقفلٍ يتمُّ فيه عجن الزّيتونِ وتكبيسه وفصْلُ نُواتِهِ ومن ثم عصرهِ..

في الجهةِ المُقابلةِ وَقفَ مُحمّد يَنتظِرُ نُزولَ الزيتِ، أنهى الشّخصُ الذي كان قبلهُ حمْلَ زيتِهِ كُلّه ، ثمَّ وبعد دقائقَ بدأَ نُزول زيت دار أبو اسماعيل من حنفيَّةٍ كبيرةٍ أخذت تَصُبُّ الزيتَ الأخضَرَ الرّائعَ في وعاءٍ كبيرٍ ، يُشبهُ القِدْر.

جهّزَ محمدٌ تنكاتِ الزيتِ الفارغةِ ، وبَدَأَ بتعبئَتِها مِن حنفيَّةٍ أخرى موجودَة في أسفلِ الوعاءِ الكبيرِ ، وكلما امتلأت التَّنكةُ ، أقفلَ الحنفيَّةَ ، ثمَّ أقفلَ التَّنكةَ ، وبدأ بتعبئةِ أخرى..

ثمانُ تنكاتٍ ونصف ، كان انتاجُ الزيت لهذا العام ؛ زيتاً رائعاً، وطعماً أروعَ ، بلْ منْ أجودِ أنواعِ الزيوتِ العالميَّةِ .. فالزيتُ من أرضِ فلسطين هو من أجودِ الأنواعِ عالمياً ، كيفَ لا وهيَ أرضُ الأنبياءِ والرُّسلِ، عليها مَشَى مُوسَى وعِيسَى ومُحمّدٌ، ومِن قَبلِهم مَشى ابراهيمُ واسحقُ ويعقوبُ ويوسفُ..

وإلى القدسِ؛ أُسريَ بسيِّدنا محمّدٍ ـ صلى الله عليه وسلّم ـ من مكّة ليلاً ومِنهَا صعَدَ إلى السَّماءِ ، بعدَ أنْ أمَّ الأنبياءَ كلَّهم بصَلاةٍ واحدةٍ.

ملأَ الحبُّ قلبَ محمدٍ وهوَ يملأُ الزيتَ، فالخيرُ والبركةُ والرزقُ كلُّهُ من اللهِ تعالى، وهذهِ الأرضُ تُعطِي ولا تَبْخلُ عليهِ وعلى عائلَتِهِ بشيءٍ ، وسيأكُلونَ الزيتَ طوالَ العامِ وسوفَ يَبيعونَ الفائضَ منْهُ بسعرٍ مُمتازٍ إن شاءَ اللهُ ..

ولكنّ أمراً جللاً كانَ ينتظرُهُ هو وإخوانُه في المنزلِ !!

الجدارُ البغيضُ...

[جرافات الاحتلال تقطعُ الأشجارَ وتبني الجدارَ العازل]

- ستّي .. ستّي .. الجرَّافاتُ وسياراتُ الرَّملِ والاسمنتِ تملأُ البستانَ يا ستّي .. تَعالي أنظري !!

أطلّت "حفيظةُ" من النافذةِ الخلفيةِ للدارِ ، فإذا بهَا ترى جَرّافتيْنِ كبيرتيْنِ تحفرانِ الجانبَ الغربيِّ من المَزرعَةِ ، وبقُربِهما سيَّاراتٌ ، وقلاباتُ رملٍ ترمي حمولتها في الأرضِ ، وعشراتُ العمَّالِ يَحمِلون أكياسَ الاسمنتِ ويُنزلونها إلى الأرضِ ..

وعلى كلّ هذا وذاكَ نجمةٌ سداسيَّةٌ زرقاءُ اللونِ وخطانِ أزرقانِ على أرضِيَّةٍ بيضاءَ، تُخبرُ القاصِي والدَّاني أنَّ حكومةَ "اسرائيل" هُنا!!

بَدأ واضحاً للجميع: لحفيظةَ وأبنائِها وحتّى أحفادِها، إنَّ حكومةَ "اسرائيل" تبنى جداراً كبيراً على أرضِ حفَيظة.

كلُّ شخص في فلسطين يَعرفُ ما مَعنى هذا الجِدار الكبيرالبغيض الذّي تبنيهِ "اسرائيل" جدارٌ كبيرٌ جداً يَفصِلُ الأراضِي عَن بَعضِها بَعضاً، جدارٌ يقسم أرضَ فلسطين إلى جزئيْنِ.

جدارٌ متعرجٌ يأكلُ أراضي الفلسطِينييْن في قراهم ومدنِهم ويَفصلُ البيوتَ والمحلاتِ والمدارسَ والمساجدَ والشوارعَ عنْ بعضِها البعْضِ؛ جِدارٌ عازلٌ يعزِلُ الناسَ عن بعضِهِم ، ويُعطِّلُ مصالِحَهم .

- ستّي .. ستّي .. لماذا يَبنون الجدارَ على أرضِنا ؟
- يقولونَ أنهُم يريدون حمايةَ سكَّان "اسرائيل" من العرب!
- ولكنّ المُستعمرةَ التي يَسكنُها اليهود هناك في الجهَةِ الأخرى يا ستّي..
- تلكَ مستعمرةٌ أو مستوطنةٌ فيها فقَطْ خمسمائة شخصٍ وهُم يُريدونَ حِمايَةِ سُكَّان "اسرائيل" الآخَرينَ عنّا ، أمّا هؤُلاءِ فهُم لمضايَقتِنا.

[الجدار العازل يأكل أراضي الفلسطينيين في قراهم ومدنهم ، ويفصلُ البيوت والمدارس والمحلات التجارية عن بعضها البعضُ ، يضايق الناس ويعطّل مصالحهم]

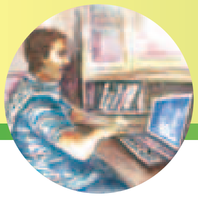

- لمْ نَفهمْ يا ستّي .. أفهمينَا أكثر ..
- لا أستطيعُ .. لا أستطيعُ ..

وانكفأتْ حفيظة على نفسِها تبكي ؛ وجلّلَ الحزنُ والأسى بيتَ أبي اسماعيل .. وجميعَ بيوتِ القريةِ ، بلْ وجميع بيوتِ فلسطين في مُدنِها الكبيرةِ والصَّغيرةِ.

لقدْ داسَ الجدارُ الكبيرُ على قلبِ كلِّ فردٍ، وقضم آلاف "الكيلومِتْرات" مِن الأراضي الفلسطينيَّة.

أُزيلَ صَفٌّ مِنْ صفوفِ شجرِ الزّيتونِ في مزرعةِ حفيظةَ لبناءِ هذا الجدارِ، وماتَ صفٌّ آخر بسبب تقطيع جذورِهِ، وصَارَ من الصَّعبِ جدّاً الوُصول من قسمٍ إلى قسمٍ في المزرعَةِ، وتَخطّي هذا الجِدارُ الشاهقُ ..

صار من الصّعبِ الوصول إلى شجرِ الزيتون خلفَ الجدار!! .

وانقطَعَ الأطفالُ عن الذّهابِ إلى مدرستِهم .. فالجدار فصَلَ المدرسةَ عن الدارِ !!

وصَعُبَ على اسماعِيلَ وعيسى الوصولَ إلى محلاّتِهِم خلفَ الجدارِ!

انقسَمَتْ القريَةُ الصغيرةُ إلى قسمينِ : أمامَ السورِ وخلفهُ.

وازدادت المشاكِلُ وصُعوبَةُ الحياةِ جَرّاءَ هذا الجدارِ العنصريِّ البغيض ، فكرهَهُ الجميعُ وبدأَ كلّ شخصٍ يُفكِّرُ في كيفيةِ التعاملِ معهُ.

وصايا الحاخام !

في اجتماعٍ صاخبٍ ، كانَ الحاخام "مردخاي" يُوصِي سُكانَ مستعمرتِهِ بمزيدٍ من الضغطِ علَى العربِ حتىّ يرحلوا.. قالَ الحاخَامُ:

- اعلموا أنَّ هذهِ الأرض هي ميراثُ شعبنا ، وإنْ غُرِسَت الأشجارُ مِن قَبلِ الأغيارُ ، فإنّ المزروعاتِ من شجرٍ أو ثمرٍ تُصبِحُ ملكاً لنَا وليست لهم ! .

وأضافَ :

- خُذوا الثّمر ، واقلعُوا الشجرَ ، وسَمّموا آبارَ المياهِ .. يَجب أنّ يَرحل هَؤلاءِ العَربُ أو يُقتلوا..

سكتَ جميعُ الحُضورِ ولمْ يُعلّقوا بشيءٍ ؛

[زوجة مناحيم جولدمان تحاول الاعتراض على وصايا الحاخام "بقلع الشجر وسرقة الثمر وقتل البشر وتسميم آبار المياه"]

أمَّا زوجةُ "مناحيم جولدمان" فقدْ حاولت الاعتراضَ على هذهِ الأفكار ، ولكنَّ زوجها أسكتها بيدِهِ من تحتِ الطاولةِ ، فهوَ يعرفُ أنَّه لا يُعجبُها مثل هذا الكلامِ غير الإنسانيّ وغير الواقعيّ ..كانتْ تقولُ دوماً أمامَ زوجِهَا: كيفَ يَسمَحُ "رَجلُ الدينِ" أنْ نقتلعَ الشَّجرَ ونَسرِقَ الثَّمرَ ونقتُلَ البشرَ ونُسمّمُ آبارَ المياهِ؟!! كيفَ يَسمحُ "رَجلُ الدينِ " أنْ نستضعف النَاس بقوة السلاحِ الذي نحمِلُهُ ضدّهم؟!

ووكزَ الرجلُ امرأتهُ ، فقامَتْ من الجَلسةِ بِهدُوءٍ ، ولمْ تَعُد تقعدُ مَعهُم.. أمّا مناحيم جولدمان فقدْ أعدَّ عُدَّتهُ لمزيدٍ من الشرِّ والقَهرِ؛

عبَّأ مناحيم ثلاثَ زجاجاتٍ بالبنزينِ ، وانطلقَ تجاهَ مزرعةِ حفيظة ..

أشعَلَ النارَ بأوَّلِ زجاجةٍ ورماهَا على أقرب شجرةِ زيتونٍ ، ومن ثم أشعلَ النَّارَ بالزجاجةِ الثانيةِ ورماها على شجرةٍ أخرى .. ولمْ يبدأ بإشعالِ النارِ في الزُّجاجةِ الثالثةِ، حتى كانتْ حفيظة وأبناؤها ينهالُون عليهِ بالحجارةِ من كلِّ جانبٍ ؛ ويُطفِئونَ النارَ من جانبٍ آخرَ.

[الزجاجات الحارقة يرميها مناحيم جولد مان تجاه مزرعة حفيظة وشجرها]

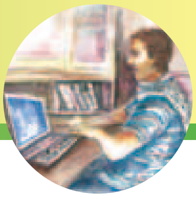

هلْ كانتْ حفيظةُ وأولادُها ينتظِرونَ مناحيم خلفَ الدارِ؟ أم أنَّ محمداً وضعَ كاميرا مُراقبَةٍ عندَ مدخلِ المزرعةِ يُراقب بها كُلّ من يدخلُ للمزرعةِ خِلسَة فانقَضّوا عليهِ في الوقْتِ المناسبِ؟.

كانَ محمدٌ يُعِدُّ الخِطَطَ ، ويُرتِّبُ الأمرَ للدفاعِ عن أرضِهمْ ومزرعتِهِم.. وكانتْ أمُّهُ تُفاجَأ بهِ وبنشاطِهِ وحَيويَّتِه وذكائِهِ .. وتقول لَهُ أنَّ المثل يقولُ :

"تكادُ المرأةُ أنْ تلِدَ أخاهَا .. وثلثِين الولد لخالِهِ" ، وأنتَ مثلُ خالكَ رحمهُ الله .

كانَ معْ الثُّوارِ الذينَ دافعُوا عَنْ القُدسِ مَع القائِدِ "عبدِ القادرِ الحسيْنِيِّ"، وها هُوَ ابنُهَا مُحمدٌ يَخلُفُهُ ..

في تِلك الليلة قَرأتْ أمُّ اسماعيلَ آياتٍ مِن القرآنِ الكريمِ لتحميَ ابنها مُحمداً وأخَوَيْهِ اسماعِيلَ وعيسَى ولتَحمِي بَيتها وأرضها وزَيتُونها.

ولكنّ مناحيم لمْ ينمْ.. لقدْ وبَّخهُ رجلُ الدينِ "الحاخامِ" على خُروجِهِ مُنفرداً لمُهاجمةِ المزرعةِ ، وطلبَ مِنْهُ أنْ لا يَتحرَّكَ إلا ضمن مجموعةٍ من الرجالِ، مُسلّحينَ بالأسلحةِ المُختلفةِ .

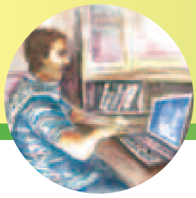

[محمد يبحثُ في الانترنت ويخطط لوسيلة انتقام مناسبة من المستعمرة الاسرائيلية المجاورة]

فتحَ محمدٌ جِهازَ الكمبيوتر، ليتصفح في الانترنِت ، وأخذَ يَقرأُعن الأفاعي : سمُّ الأفاعي، طولُ الأفاعي ، بيضُ الأفاعي، أنواعُ الأفاعي ..

قرأَ وقرأَ وقرأ ... وعندما نادتْهُ أمُّهُ كَي يْطفئَ الجهازَ ويَنَامَ ، أغلقَ النّورَ وأطفأَ الجهازَ، ونامَ يحلمُ ويُخطُطُ ..

كلّ شابٍ في فلسطينَ يتمنى أنْ يدافِعَ عن عائلتِهِ وبيتِهِ وأرضِهِ .. وكلّ عائلةٍ هاجمها المستوطنونَ اليهودُ المسلّحونَ ، كانتْ تتمنى لو استطاعتْ أنْ يكونَ لديها سلاحاً للدّفاعِ عنْ نفسِها . وكلُّ إمرأةٍ أو فتاةٍ تمنَّت أن يُقدّرَها اللهُ على الدفاعِ عن نفسِها وبيتِها وأولادِها أمامَ هؤلاءِ المُحتلينَ الغاصبينَ .

ففلسطِينُ احتلَّها اليهودُ بدعمٍ من الإنجليزِ، ولمْ يستَطِعِ الثوارُ ولا الفدائيونَ ولا الجيوشُ العربيةُ أن تهزِمَهُم بعد ..

ولكنّ اللهَ يُمهِلُ ولا يُهمِلُ ..

هكذا كانتْ أمُّ اسماعيلَ تؤكدُ لأولادِها وأحفادِها أنَّ اللهَ يُمهِلُ اليهودَ المُعتَدِينَ ، ولكنَّهُ لا يُهملهم ، ولقد وعدنا اللهُ أنْ ننْتصر عليهِمْ ..

كانتْ تَقرأُ لهمْ سورةَ الاسراءِ مِن القرآنِ الكريمِ ، وتؤكّدُ لهمْ أنَّ النصرَ آتٍ لا مَحالة، كما تَقولُ الآياتُ الكريمَةُ .

ولم يكن أبناؤها أقل إيجابيَّةً منها ، ولكنَّهم كانُوا يَنتظِرُونَ هذا اليومَ بصبرٍ كبيرٍ.

عندمَا سافرَ اسماعيلُ معْ والدتِه إلى يَافا ، مَسقَطَ رأسِ أبيهِ ، حَزِنَ مَرَّتيْن : مرَّةً لأنَّ والدهُ تركَ يافا وهاجرَ إلى تلكَ القريةِ الصغيرةِ قربَ نابلسَ ؛ قرية سالم .

ومرَّةً لأنَّ يافَا دُونَ أهلِهَا، أصبحت مدينةً حزينةً مُهلهلةً ، لا حياةَ فيها ولا حضارةَ.. كانتْ نجمةَ البحرِ المتوسِّطِ وعَروسَهُ ، وأصبَحَتْ كئيبَةً انطفأَ نورُها ، وتمزَّقتْ مَلابِسُها..

وعندمَا هاجر أبوهُ وأمُّه من يَافا ، ولَدتْه أمُّهُ كمَا قالتْ على قارعةِ الطريقِ ، تحتَ شجرةِ زيتونٍ في العراءِ .. فقدْ طردَهُم اليهودُ من بيتِهم بِقوَّةِ السِّلاحِ ، وهلْ بغيرِ قوةِ السِّلاحِ يَخرُجُ المَرءُ من بَيتِهِ عارياً حافياً؟!

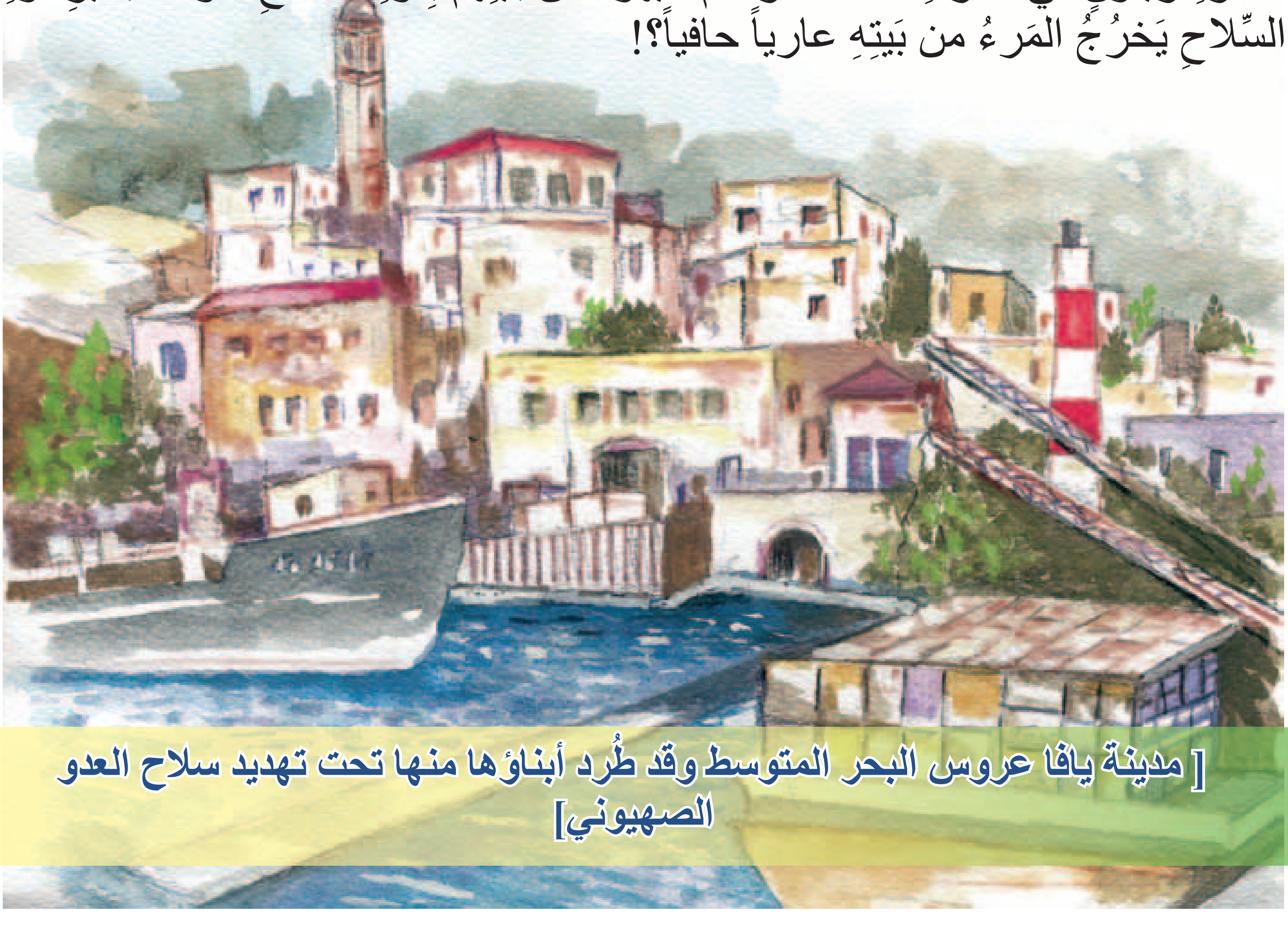

[مدينة يافا عروس البحر المتوسط وقد طُرد أبناؤها منها تحت تهديد سلاح العدو الصهيوني]

لذلك عندما عادَ اسماعيل إلى بيتهِ و مزرعته ،وضعَ سكيناً تحت وسادتهِ ولم يعدْ يتركها لحظةً واحدة ، فقد أحسّ أن غدرَ «مناحيم جولدمان» ورفاقه من قطعانِ المستوطنين سيلاحقهُ دائماً..

وهذا ما كانَ ..

ففي فجرِ ذلكَ اليومَ استيقظَتْ العائلةُ كلُّها على صوتٍ لم يكنْ أهلُ فلسطين يكرهونَ غيرهُ.. صَوتِ آلةِ المنشارِ الكهربائيَّةِ تقطَعُ أغصان الزيتونِ ..

قامتْ حفيظةُ من نومِها تركضُ إلى الخارج .. كان"مناحيم جولدمان" قادماً مع عشراتِ المستوطِنيْنَ ، تُرافِقُهم سيارة عسكريَّة ، ومعهُم عشراتُ الأوراقِ المختومةِ بالنجمةِ والخطينِ الأزرقيْنِ وأوامرَ بالإخلاءِ.

كلٌّ يَعملُ في جهةٍ ..

هذا المنشارُ الكهربائيُّ يقطعُ أغصانَ شجرةِ زيتونٍ ، وذلكَ الفأسُ يَهوي على جُذورِ شجرة زيتونٍ أخرى ، وتلكَ الزجاجَةُ الحارقَةُ تحرقُ الشجرةَ هُناك ..

[المناشير الكهربائية تقطعُ أغصان الأشجار]

ولكنَّ الجَرافةِ الكبيرَةِ كانت تعمَلُ في مدخل المَزرعَةِ ؛ في جُذورِ الشجرَةِ الكبيرةِ، الشجرةِ "الغابةِ" : الشجرة الأم ، فقدْ أحبَّتْها زوجَةُ "مناحيم جولدمان" ورجَت زوجها عشراتِ المراتِ ألّا يُصيبها بأذى .. ورغبةً منْهُ ليُرضِي زوجتَهُ ، فقدْ رأى أنْ يَحملَهَا كمَا هيَ مِنْ جُذورِهَا ليزرعها في مستعمرتهِ ، وأمامَ بيتِهِ لتَراها زوجتُه كلّ صباحٍ ..

هبَّ كلّ مَن في البيتِ .. ولكنَّ عِيسى طَلبَ مِن زَوجتِهِ أن تَبقَى في المنزلِ لحمايةِ الأطفالِ وقالَ لَها:

- لا تتَحركِي مِنْ مكانِكِ حتى لو رَأيتِينَا نَموتُ كلّنا هُناك .

وبَقِيَتْ الزوجَةُ والأحفادُ ، ولمْ تُغادِرُ المَنزلَ أبداً ..

أما اسماعيلٌ فقد تناولَ سكّينَهُ من تَحتِ سرِيرِهِ ، وانطلقَ إلى المَزرعةِ، وأمَّا حَفيظَةٌ فقدْ انطلَقَتْ إلى زَيتونَتِها الكبِيرةِ: تِلكَ التي احتَضَنتْها عِندمَا هَاجرتْ هيَ وزوجُهَا أوَّل مرةٍ.

[قطعان اليهود يقتلعون الأشجار ، ويحاولون نقل الشجرة الغابة : الشجرة الأم ،بجذورها لزرعها في مستعمرتهم]

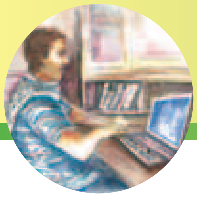

تلكَ الزَّيتونَةُ التي ولدت تحتِها ابنها البِكرُ اسماعيلَ ؛ تلكَ التي كانت تَلقُط ثمرها كلّ عامٍ، وتملأُ منه كيساً أوْ كيسيْنِ من الزَّيتُونِ الكبيرِ ، ذِي الزَّيتِ الرائع، لأكلِها ومصروفها .. انطلقَتْ تَحتَضِنُ الشَّجرةَ العتيقةَ وتحميها بذِراعِيها مِنْ أسْنانِ الجَرَّافَةِ المُجرمَةِ.

أمّا محمَّد فقد انسحبَ من المعركةِ ولمْ يعرف أحدٌ أين اختفى !!

احتضنتْ حفيظةُ الشجرةَ ، تَمنعُ الجرّافةَ من اقتلاعِها مِن جُذورِهَا ، وهَوى اسماعِيل على "مناحيم" يطعنُه بسِكِّينِه، بيْنما حَمَلَ عيسى الحِجَارَةَ لرميِهَا على المُعتَدِينَ.

وانتهت المعركة بسرعةٍ عجيبةٍ !! إذْ حضرَ إلى مكانِ الحادثِ فريقانِ لانهاء المعركة:

فريقُ شرطةٍ اسرائيليةٍ تريدُ الحفاظَ على الأمنِ ، وحماية أبناء المستعمرة.

وفريقُ الأستاذ أحمد وعددٌ كبيرٌ من طلبةِ المدرسةِ والمعلمين لمساعدة العائلةِ.

وتفرَّقَ الجمعَانِ بِسرعَةٍ أكبرَ.. وبدأَ كُلٌّ يُحصِي خَسائره.

والغريبُ في الأمرِ أنَّ زوجَةَ مناحيم جولدمان ، كانتْ في المَوقِعِ تحمل كاميرا تصويرٍ، ولم يُعرفْ مع أيِّ الفريقيْنِ جاءتْ!.

أمّا مُحمّد فقدْ اختفى.. مرّ يومانِ وأمُّهُ وأخوته يَبحثونَ عنهُ.. فلمّا عادَ، عادَ يحمِلُ كيساً خبّأهُ في غرفتِهِ .

لحِقَ بهِ اسماعيلُ يَسألُهُ عَن غِيابِهِ والكِيس ، فقال :

- أمّا الكيسُ يا أخِي فهوَ بُندقيّةٌ ، استطعتُ شراءَها مِن "مردخاي" رجل الدّينِ اليهوديِّ الذي يسكنُ المستعمرةَ القريبة مِنّا..
- هل ذهبتَ إلى المستعمرةِ يا مُحمّد ، وقابلتَ هذا الرجل ؟!
- نعمْ عندما كان قطعانُهُ هنا في مزرعتِنا .. ذهبتُ إليها ولمْ يكن فيها أيُّ حارسٍ أو مسلَّحٍ ..

ولمْ يتفوَّهْ اسماعيلُ بشيءٍ؛ ولكن محمداً أضاف :

- حملتُ سلَّتَيْنِ كبيرتيْنِ مليئتيْنِ بالنقودِ .. كُنْتُ أوفِّرُ يومياً ثمنَ هذهِ البُندقيَّة ، فمَنظرُ أمِّي تحديداً ، وهيَ تتعرَّضُ يوميا لمضايقاتِ هؤلاءِ المستوطنين في المستعمرةِ

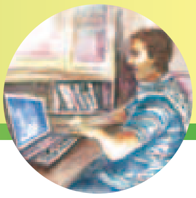

- لمْ يكن يُرضيني .. لمْ أستطِع أنْ أسْكُتَ على إهانَتِهَا وتَعذيبِها يَوميّاً، وأحْسَسْتُ أنَّ الحلَّ هوَ القوَّةُ، فدَفَعْتُ كلّ ما أملكُ للحصولِ على هذهِ البُندقيَّة.

وبعدَ بُرهةٍ من الصمتِ أضافَ محمدٌ :

- ومع ذلكَ فلمْ أدخُل المُستعمَرَةَ دونَ سلاحٍ ، ففي سَلَّةِ المالِ وضَعْتُ عَدداً مِنْ بُيوضٍ وفِرَاخِ الأفاعِي ، وعندَمَا خَرَجْتُ مِنَ المُستَعمرةِ، رَفعَتُ غطاءَ السلَّةِ ، وتَركتُ الأفاعِي تتَسللُ إلى بُيوتِهم مَتى تَشاءُ.

بعدَ أسابيعِ نشرتْ الصحفُ والمجلاتُ صورةً لحفيظةَ تحتضِنُ شَجرةَ الزيتُونِ الكَبيرَةِ، وتُحيطُها بِيديْها ، وكأنّها أمٌّ تَحتَضِنُ ابنَها الغَالي ..

****

تمت

الصورة الأشهر للسيدة الفلسطينية تحتضن شجرة الزيتون

A.C.P
الرأي
مطابع الرأي التجارية

المملكة الأردنية الهاشمــية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠١٦/٩/٤٥٣٩)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الأديبة
روضة الفرخ الهدهد

صدر للمؤلفة الكتب التالية للأطفال:

* سلسلة حكايات بطولية للأطفال (1–26) تناسب الطلاب من الصف الرابع.
* سلسلة حكايات الغول (1–3) تناسب الطلاب من الصف الثاني.
* سلسلة قصص الصحابة (1–2) تناسب الطلاب من الصف الثالث.
* سلسلة المسرح (1 – 7) / قدمت على المسارح وقام بأدائها الأطفال من عمر 6 إلى 17 سنة.
* قصص الطفولة المبكرة (1–5) تناسب الطلاب من الصف الأول الأساسي.
* سلسلة حكايات علمية وأخرى (1 – 8) تناسب الطلاب من الصف الرابع.

كما صدر للمولفة :

* كتاب اليافاوية باللغتين : العربي والانجليزي سيرة ذاتية (1)
* كتاب من يافا إلى عمان مع المحبة سيرة ذاتية (2)
* كتاب ثقافة الأطفال في الأردن

تصفح السيرة الذاتية واقرأ الكتب على موقع الكاتبة

Website: www.rawdahudhud.com
E-mail: rawdahudhud@msn.com

تطلب الكتب من دار كنده للنشر والتوزيع

Tel: +962 6 592 92 82 Fax: + 962 6 592 21 45
p.O. Box: 815331 Amman 11180 Jordan